الأستاذ الدكتور أندريا ريكّاردي
وزير التعاون الدولي والاندماج

القاهرة، جامعة الأزهر
26 نوفمبر 2012

الإسلام وأوروبّا. رؤية جديدة للمستقبل

السادة الأجِلاّء،
يُسعدني حقًّا أن ألقي خطابي اليوم في هذه الجامعة العريقة: جامعة الأزهر، بحضور فضيلة الإمام الأكبر الشيخ أحمد الطيِّب. إنّني أشكره جزيل الشكر لتفضُّله بتوجيه هذه الدعوة لي. كما يُشرِّفني التحدّث أمامكم جميعًا. أغتَنِم الفرصة لأعبِّر مجدَّدًا عن فائق تقديري لفضيلة الإمام الأكبر الذي عرفتُه منذ زمن، والذي أتشرّف بصداقته. لقد أُعجبتُ به ـ على وجه الخصوص ـ كيف تابع بذكاء وبحكمة تطوّر المجتمع المصريّ متابعة رجلِ دين بحقّ.
إنّ اللحظة الراهنة هي مرحلة عبور حسّاس فيما يتعلّق بالحياة السياسيّة لمصر، عبورٌ يراقبه العالم كلّه بمزيد من الاهتمام. وجودي هنا في القاهرة يعني لي أن أكون على مسرح واحدٍ من أهمّ وأكثر الحركات إيجابيّةً في تاريخ أوائل هذا القرن. وسأُجيز لنفسي التأكيد على هذه الناحية. فهذا المكان هو ـ في الوقت ذاته ـ مكان ينطق بالحضارة منذ آلاف السنين، ويعبِّر منذ قرون عن علم (دراية) روحيّ وإنسانيّ رفيع المستوى ورقيق الحاشية.

ذلك الذي يحدّثكم

لقد سألتُ نفسي: لماذا طُلِبَ إليَّ التحدّث هنا، فيما بينكم، فضلاً عن الالتفاتة الكريمة لفضيلة الإمام الأكبر. إنّني وزيرٌ للحكومة الإيطالية، مكلّف بالنهوض بشؤون التعاون الدولي والنموّ واندماج المهاجرين الذين يعيشون في إيطاليا، المقدّر عددهم بخمسة ملايين نسَمة، فضلاً عن شؤون الأسرة وشؤون الشباب في المجتمع. إنّ الحكومة الإيطاليّة التي تنهض بخدمة البلد منذ ما يزيد بقليل عن سنة تُعَدّ سلطة تنفيذيّة تقنيّة، طُلب إليها بدعوة من مجلس الشعب (البرلمان) أن تقود إيطاليا للخروج بها من أزمة اقتصاديّة جادّة. وقد تحرّكنا بهذا الاتّجاه حاصلين على نتائج تبشِّر بالأمل حقًّا. لقد أبدت الحكومة الإيطاليّة اهتمامًا كبيرًا بتوثيق روابط الحوار مع جامعة الأزهر. والشاهد على هذا الأمر هو اللقاء الذي تمّ في شهر ابريل/ نيسان الماضي بين السيِّد رئيس مجلس الوزراء عضو مجلس الشيوخ (السيناتور) ماريو مونتي وفضيلة الإمام الأكبر الشيخ أحمد الطيِّب. أُجدِّد لفضيلة الإمام الأكبر ولكم جميعًا أيّها السادة الأجلاء تحيّة السيِّد رئيس مجلس الوزراء مونتي الذي تركت زيارته للأزهر أثرًا عميقًا في نفسه. إنّنا في الحقيقة مقتنعون ـ أعني الحكومة الإيطالية ـ أنّ الدين، والإسلام على وجه الخصوص له دور بارز في الحياة السياسيّة لهذا البلد.
أعتقد أنّني دُعيتُ ـ أيضًا ـ للمجيء إلى هنا بوصفي دارسًا للتاريخ وأستاذًا جامعيًّا. وليس فقط ـ كما قيل ـ لأنني ملتزم بنشأة جماعة سانت ايجيديو وبالعمل فيها، وهي حركة مسيحيّة ذات حياة دينيّة، تلتزم بالصلاة وبخدمة الفقراء، فضلاً عن التزامها بالحوار. أنا مقتنع اقتناعًا راسخًا أنّ المؤمن

المعتاد على الحوار مع الله في الصلاة هو رجلُ حوارٍ نظرًا لطيبعته العميقة: حوار بين بَني البشر، وحوار بين الأديان. العَيش يعني الحوار. والإيمان أيضًا يعني الحوار.
إنّني إيطاليّ، أوروبيّ، مسيحيّ. تاريخي، وتاريخ بلدي وقارّتي يختلف عن تاريخكم وتاريخ أرضكم. تاريخُ عالَمي وتاريخ عالمِكم قد شَهدا في الماضي مواسمَ نزاع فيما بينهما. ولاسيّما فترات من الجهل المشترك (أعني من الطرفين كليهما). أودّ القول إنّ ذلك الجهل المشترك كان الشرّ الكبير الذي وقف عقبة بين الأوروبيّين والعرب. ففي حقل الجهل نمَت أنواع من سوء الفهم، والأحكام المسبقة، وعدم الاحترام. إنّنا نعرف هذا جيِّدًا؛ فهو ليس تاريخ سنوات قليلة، إنّما تاريخ قرون عديدة من الزمن. وإن لم تغِب الاستثناءات المضيئة من كِلا الطرفين: فالإيمان والحكمة ـ في الحقيقة ـ يفتحان دائمًا منافذ قادرة على اختراق جهل الغالبيّة.

مفاجآت تاريخ يتغيّر

مع ذلك فالزمن قد تغيّر جذريًّا. ففي الماضي كان باستطاعة البلدان والثقافات والأمم أن تعيش منعزلة بعضها عن بعض. أمّا اليوم فقد تغيّر الأمر كثيرًا. يجب علينا أن نَعي التغيّرات التي نعيشها. فليس بمقدورنا أن نعيش وكأن شيئًا لم يحدث. لقد حدثت أمور كثيرة في العقود الأخيرة من الزمن.
يُدرك المؤمن إدراكًا جيّدًا أنّ الأزمنة والتاريخ ليست محضَ مصادفةٍ. يتحدّث المزمور 29 ، وهو أحد أقدم المزامير، عن صوت الله الذي يملأ الكون. فما يحدث في الكون وفي التاريخ متَّسِم بحضور الله. إنّ البابا يوحنّا بولس الثاني ـ ذلك المؤمن الكبير ـ المتوفّى عام 2005 بعد مدّةِ حَبريّته الطويلة التي غيّرت العالم، كان يقول لمن يذكّره بالمعضلات وبالمقاومات التي يحفل بها التاريخ:
" كلّ شيء يمكن أن يتغيّر. فالأمر يتعلّق بكلّ واحد منّا. كلّ شخص يستطيع أن ينمّي بداخله (في نفسه) قوّته الإيمانيّة الخاصّة... وبناءً على هذا فبالإمكان تغيير مجرى الأحداث..."
كان مقتنعًا ـ وكان يُعيد القول ويكرِّره ـ أنّ التاريخ حافلٌ بالمفاجآت. وقد اختبرنا هذا الأمر منذ وقت ليس بالبعيد. لقد تغيّت أمور كثيرة ـ في الحقيقة ـ على شواطئ البحر المتوسط. أكتفي بالتوقف عند العقود الأخيرة من الزمن. لقد كان التاريخ مليئًا بالمفاجآت، إنّه فاجأ كذلك أذكَى مُراقبي الوقائع البشرية. لقد حدث تسارع في حركة التاريخ، عام 1989 مع سقوط الأنظمة الشيوعية، وكذلك مع الاختفاء شبه التامّ للجاذبيّة السياسية التي كانت تتمتع بها الماركسيّة المتجذّرة في أوروبّا وفي العالم العربي. لم يكن ذلك الحدثُ أمرًا هيِّنًا، وقع ـ تقريبًا ـ من غير عنف، وكان قلب أوروبّا مسرحًا له. وقد أسفر هذا عن إعادة توحيد أوروبّا التي باتت ديمقراطيّة كلّها. لم تكن أوروبّا أبدًا عبر تاريخها ديمقراطيّةً هكذا بشكل عميق وتامّ، شأنها الآن. إنّه حدثٌ جديد وتاريخيّ تنعكس صورته في الاتحاد الأوروبّي.
كانت الأعوام اللاحقة، أعوام العَولمة بعد سنة 1989، تبدو متّجهة نحو تشييد سلام كبير. ثم كانت أحداث 11 سبتمبر والهجوم الرهيب الذي استهدف الولايات المتّحدة الأمريكية والتحدّي العالمي للإرهاب. لقد ولّدت هذه الأحداث مناخًا ساخنًا، أشبه ما يكون بمناخ التصادم الذي كان يُراد به إحداث مواجهة تعارض بين الغرب والعالم الإسلامي. لقد بُعثت أشباح قديمة وجدت لها مرتعًا

خصبًا يغذّيه الجهل والخوف. أكان قدرُ العالم أن يتجّه نحو الحروب بين الأديان وبين الثقافات؟ كثير من الناس اعتقدوا أنّ الأمر هكذا. يجب أن أقول بقناعة تامّة إنّني لم أكن بين هؤلاء.
أخيرًا ـ وأنا أتكلّم الآن عن تاريخ حديث جدًّا ـ عشرة أعوام تمامًا بعد أحداث 11 سبتمبر، أي عام 2011 بدأت أحداث ما عُرف بالربيع العربي. وقد كان لتلك الأحداث أن تضع حدًّا ـ قبل كلّ شيء ـ للخوف من السلطة الطاغية (الدكتاتوريّة)، وأن يبدأ موسم ديمقراطي جديد لكثير من الدول العربية. تمثّلت المفاجأة الكبرى بالارتجاج العميق الذي داهم المجتمع العربي. فقد أظهرت الأجيال الجديدة للضفة الجنوبية للبحر المتوسط أنّها أقوى من أيّ إذلال، ومن أيّ "منع"، ومن أيّ خوف. نهاية الاستسلام والخوف، المطالبة بالحريّة، بالكرامة وبالديمقراطيّة، كانت كلّها الخيوط المشتركة التي أدّت إلى الصحوة العربية. أمّا الأفق الذي تحرّك عبره المشاركون في مظاهرات ميدان التحرير وفي ميادين أخرى كثيرة فقد كان الأمل والمستقبل.
كما تمكّن رجل دين مسلم أن يشهد في الأزهر: " كان الجميع موجودين، من مسيحيين ومسلمين، نساء ورجال، كان بعضهم يحترم بعضًا، وكان أحدهم يساعد الآخر. كان الجميع يعيش... توتُّرَ استعادة الوطن، والاتحاد به، بعد قطيعة طويلة، وبعد أن كانت قد شوَّهت صورتَه أعوامٌ من القهر والعنف ".
لقد عبّر المجتمع المصريّ عن نفسه ـ وهو مجتمع تعدُّدي ـ بشكل متجدِّد.
إنّني سعيد جدًّا، فأنا أحبّ حقًّا بلدكم الذي أتردّد عليه منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا، إنّني سعيد أن توجد اليوم مصرٌ ديمقراطيةٌ، قويّة ليس فقط بفضل هيبة تاريخها العريق وبفضل مكانتها بين الأمم، ولكنّها قويّة أيضًا بفضل هيبة الحريّة.

البحر المتوسط، بحرُ ديمقراطيةٍ

لقد جرت أحداث التاريخ بسرعة حقًّا في مصر، في أوروبّا وفي البلدان المتوسطية. وقد وضع التاريخ نفسَه مرة أخرى في حركة. يوجد موسم جديد على شواطئ بحرنا. إذا دققنا النظر اليوم في البلدان المتوسطية ندرك أنّ المتوسط ـ إن أمكنني القول ـ قد أصبح بحرًا ديمقراطيّا بأكمله. ليس هذا بالأمر القليل. إنّه لم يكن هكذا أمس. أمّا اليوم فالديمقراطيّة تزدهر في البلدان المتوسطية وتصوغ لها حياتها السياسية والاجتماعية. غير أنّنا نمتلك فرصةً أكبر مقارنةً بالماضي: لقد أصبح متوسِّطُنا جماعةً ديمقراطية.
يختلف تاريخ ديمقراطيتَينا أحده عن الآخر؛ ففي السنة الماضية (2011) خلال الاحتفالات بمناسبة مرور 150 عامًا على وحدة إيطاليا، أو بتعبير آخر: ولادتها بوصفها دولة موحَّدة وذات سيادة، استطعنا أن نتذكّر مراحل تاريخنا، تاريخ ديمقراطيّةٍ كانت رقعتها تتّسع باطّراد؛ فضلاً عن تذكُّرنا تاريخ الأزمات التي مرّت بها هذه الديمقراطيّة، أعني: الفاشيّة، والحرب العالميّة الثانية. لقد حظيت أيطاليا بالاستقرار عام 1948 بفضل دستورها الديمقراطي والجمهوري الجميل وبعيد النظر، الذي له من العمر خمسة وستّين عامًا تقريبًا. كانت ايطاليا الديمقراطيّة تمثّل المرحلة التي شهد فيها البلد أكبر نموّ اقتصادي وازدهار اجتماعي، حيث عمّ الرخاء والأمن والضمان الاجتماعي أوساط الغالبيّة العظمى من مواطنيه.
التاريخ في مصر مختلف تمامًا. غير أنّ الديمقراطيّة ـ على أيّة حال ـ ليست أمرًا يُفرَض من الخارج على أيّ بلد من البلدان. الديمقراطية تنضج في أعماق المجتمع. حتّى في ظلّ الأنظمة الدكتاتوريّة تتمكّن بعضُ المظاهر الديمقراطيّة والحرّة ـ في الحقيقة ـ من الصمود في مجال الحياة الاجتماعية والثقافية، وفي العلاقات مع الجماعات والأديان الأخرى. تمتلك مصر تاريخًا عريقًا في

التسامح. واليوم نجد أوجُهَ الحياة الاجتماعية والتاريخ قد بلغت كلّها مرحلة النضج، وتحقّقت في نظامٍ ديمقراطي تمامًا، ذي بُنى دستوريّة برلمانيّة وانتخابيّة. هذه الديمقراطيّةُ هي ديمقراطيّة جديدة، ولكنّها ـ من ناحية أخرى ـ ذات جذور عريقة.

الأديان والديمقراطيّة

يُلاحَظ ـ بشكل خاصّ ـ في مصر وفي العالم العربي وجود علاقة قويّة بين السياسة الديمقراطية والإسلام. إنّ الأديان وحقيقتها المُوحى بها، يمكن أن تكون لثقافةٍ ذاتِ طابع علمانيّ أمرًا يحدّ من ممارسة الديمقراطية؛ لأنّها قد تقمع التعدديّة وحريّة الرأي. غير أنّ هذا التأويل لا يجد له سندًا من قِبَل التاريخ، فالأفكار المستلهَمة من الدين ـ في الحقيقة ـ لا تُضعف الديمقراطيّة، على العكس، إنّها قادرة على إنعاش ومساندة الديمقراطية، كما أنّها لا تُنكر اختلاف الآراء وحرّية الآخَر.

في التاريخ الإيطالي ـ منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية حتى بداية التسعينيّات ـ كنّا نمتلك حزبًا شعبيًّا ذي ثقافة مسيحيّة، كان يمثّل الأغلبيّة النسبيّة (غير المطلقة)، وكان موجودًا في كلّ الحكومات في تلك الحقبة. إنّه الحزب الديمقراطي المسيحي، وقد حكم البلد في إطار التحالف مع أحزاب أخرى ذات نزعات فلسفية مختلفة. كما أنّ بصمات الديانة المسيحية الكاثوليكية هي باديةٌ في إيطاليا، ليس فقط بسبب عدد المؤمنين، ولكنْ لأنّ الكاثوليكيّة قد وسمت تاريخنا بعمق. إنّ معالمها موجودة (أو لِنَقُل منقوشة) عبر نُصب تذكاريّة عديدة، وكنائس، وأعمال فنّية، وطراز تنظيم مدننا.

إنّ الفقرة السابعة من دستورنا ـ في الحقيقة ـ تقرّ بأنّ الكنيسة الكاثوليكيّة تمتلك وضعًا خاصًّا في التاريخ الإيطالي. وبوصفي مؤرِّخًا فأنا أذكر أنّ التصويت لهذه الفقرة تمّ ليس من قِبَل الكاثوليك وحدهم، ولكن من قبَل الشيوعيِّين كذلك، الذين كانوا يُقرّون بهذه الحقيقة. ولكن بعد الفقرة السابعة مباشرة تؤكّد الفقرة الثامنة أنّ: " الأديان كلّها حرّةٌ بشكل متساوٍ أمام القانون ". إنّ هذه القواعد التي أسّس لها الدستور، والتي كُتِبت في أربعينيّات القرن العشرين ما تزال قائمةً اليوم في إيطاليا، حيث ازدادت التعدّدية الدينية بسبب الهجرة؛ فاليوم يوجد في بلدنا خمسة ملايين مُهاجر، من بينهم حوالي مليون وثلاثمئة ألف مسيحي أرثوذكسي، ومليون مسلم.

بوصفي وزيرًا للاندماج فقد استحدثتُ " المؤتمر الدائم للأديان والثقافة والاندماج " وأنا أدعوه للانعقاد بشكل دَوريّ بمشاركة ممثلي القيادات الروحيّة لمختلف الجماعات الدينيّة التي تعيش في روما؛ لأنني مقتنع أنّ عونَهم ووساطتهم قد تكونان مهمّتين لاندماج المهاجرين الموجودين في بلدنا. إنّ الأديان ـ في الحقيقة ـ ليس باستطاعتها المساعدة في اندماج الأقليّات فحسب، ولكنّها قادرة على تعزيز الديمقراطيّة كذلك.

واليوم، مع التموُّج الكبير الذي تشهده الشعوب، والذي سبّبته العولمة فإنّ أقلّيات دينيّة وعرقية مختلفة قد وجدت نفسها تعيش معًا. إنّ نوعيّة الديمقراطيّة التي تمتلكها حضارةٌ من الحضارات تظهر من خلال المكان الذي تمنحه تلك الديمقراطيّة للآخر، لمن هو مختلف عن الأغلبيّة. إنّ الاستبداديّة على اختلاف أنواعها تعمل على قمع الاختلافات والقضاء على الآخر وتجريده من المكان الذي يشغله. عندما يصبح الآخر مهمَّشًا أو مُزدَرى تقضي الديمقراطيّة نحبها، وتلوح في الأفق الظلال الطويلة للاستبدادية. إنّ حماية الآخر، ذلك الذي يختلف عنّي، هو أساسٌ للدفاع عن الديمقراطيّة ولضمان ازدهارها.

الثورة العقليّة للعولمة

لقد تَغيَّرَ العالَمُ، نظرًا ـ أيضًا ـ إلى أنّ الرجال والنساء مختلفون. وقد شهدنا ذلك في العالَم العربيّ. فالناس اليوم لهم أهمّيّةٌ أكبر. فإن كانت الديكتاتوريّات قد سقطت، ذلك يعني أنّ الناس لهم أهمّيّة. لقد تغيّر سكّان الأرض في مدى رُبْع قرن. العالم ليس هو هو دائمًا. فالبيانات أو المعطيات تُبيِّنُ لنا ذلك. ومن يسافر في العالَم منذ سنواتٍ عديدةٍ، مَن يعرف ـ مثل معرفتي ـ ليس أوروبا والعالم العربي فحسب، ولكن يعرف أيضًا أفريقيا، تلك التي كان يقدَّر لها مصيرُ فَقرٍ.

أجل، لقد تغيّر الرجال والنساء، قريبًا منّا، وبعيدًا عنّا. لِنَنْظُرْ الى وجوه الناس أمثالنا. منذ عام 2006، يسكن أكثر من نصف سكّان الأرض في المدن، فيما يَتَخَلَّوْنَ تدريجيًّا عن أُطُرِ الحياةِ الزراعيّةِ التي صاحَبَتْ تاريخَهُم آلافَ السِّنِين. لقد أصبح العالم مَدِينِيًّا (يقطن المدن) اليومَ أكثرَ منه في أيِّ يومٍ مضى من تاريخه الألْفِيّ. بين عام 1980 وعام 2000 حصلت ثورةٌ ثقافيّةٌ حقيقيّة: فقد ارتفع مُعَدَّلُ الألْفَبَة (تعليم الأُمِّيِّين) بين أوساط البالغين ارتفاعاً ملحوظًا. ففي نيجيريا، وفي أكثر من عشرين عامًا بقليل، ارتفع عدد الأمّيِّين الذين تَعَلَّمُوا من 33% الى 64%؛ وفي رواندا من 40% الى 67%؛ وفي الصين، من 66% الى 85%. وفي عام 2010، أصبحتِ النسبةُ 63% من سكّان العالم: وهذا ما سَمَّاهُ **إمانُويل تُودّ** "الثورة العقليّة". وهنا، أعودُ الى ما سَبَقَ أن قلتُهُ في مطلع كلمتي عن الثورة العقليّة التي مَيَّزَتِ الصحوةَ العربيّة. الناس يشعرون أنَّهُم روّادٌ.

لقد دَخَلْنَا في دائرةِ الإعلام والمعلوماتيّة التي تربطنا بالعالم كلِّهِ، شِئْنا أم أبَيْنا. الناسُ يُرِيدُونَ أن يكون مصيرُهُم في أيدِيْهِمْ متقبِّلينَ الهامشيّة والظُلْمَ بسلبيّةٍ أقلّ. وهذا ما نلاحظه من خلال الهجرة. فالمهاجرون ليسوا "عامَّة أو دَهْمَاءَ" بلدانِهم، بل هم ـ في غالبِ الأحْيانِ ـ أناسٌ واعُونَ، مُدْرِكونَ، مُثَقَّفُون. إنّني أُدركُ ـ بِفضلِ عملي أيضًا وزيرًا لِلاندماج ـ أنَّ مصرَ ليست مُمَثَّلة في إيطاليا بالمباني التاريخيّةِ، كالأهرام فقط، بل هي مُمَثَّلةٌ أيضًا بجماعةِ مهاجِرِينَ غادَرُوا وَطَنَهُم لأسبابٍ إقتصاديّةٍ، غير أنَّهُم، في غالب الأحيان، أُناسٌ ذَوو كَفاءة عالية.

إنّ الشعورَ بقيمةِ الحياةِ، الحياةِ الشخصيّةِ، آخِذٌ بالنموِّ، وهي حياةٌ لا يجوزُ أنْ تُنفَقَ بعيدًا عن أيّة فرصةٍ. وإنّ الرجالَ والنساءَ مُعاصِرينا يَعُونَ وَعْيًا أبرزَ ذاتيَّتَهُم قياسًا إلى الأجيال السابقة. إنّ قيمة الفَرد التي اكتسبت قوّةً وقيمة الجماعاتِ البشريّة كذلك قد وضعتْ أنظمةً استبداديَّةً عَدِيدَةً في حالةِ أزمَةٍ. الرجالُ والنساءُ اليومَ لَهُم أهَمِّيَّةٌ وَهُم يَتَطلَّعُونَ الى إدارةِ حاضرِهِم بِأيْدِيهِم، ويريدونَ أنْ يَعيشُوا بطريقةٍ فُضلى، وهم يشعرونَ بِتَحَدِّي عالَمٍ أصبحَ كبيرًا جِدًّا.

هؤلاءِ الرجالُ والنساءُ، المُدخَلُون في عالَمٍ أكثرَ عولَمَةً، يريدونَ أنْ يَفهَمُوا أكثرَ وأن يَطمَئِنّوا وأن يُعطَوْا شروحات، وبخاصّة، أنْ تكونَ لَهُم أفكارٌ عن مستقبَلِهِم. توجد حاجةٌ كبيرةٌ لدى الناس الى أفكارٍ ومُثُل. كتب يوحنّا بولس الثاني، في قصيدةٍ من قصائدِ شبابِهِ ـ أي في سنوات الدكتاتوريّةِ الشيوعِيَّةِ في بُولندَا ـ يقول: " أعتَقِدُ أنّ الإنسانَ يَتألّمُ بخاصّةٍ بسببِ انعدامِ الرؤيةِ". كانت الرؤيةُ في بولندا الشيوعيّة مُنعَدِمَةً بسبب قوّةِ ذلك النظامِ الظالِمَةِ. اليومَ، رُبَّما لا نستثمِرُ بشكلٍ كافٍ في رؤيةٍ للمستقبل.

رؤيةٌ متوسِّطِيّة

العالَمُ اليومَ مُعَقَّدٌ ومترابطٌ جدًّا. فما من بلدٍ، في قضاياهُ، لِوَحْدِهِ، وما من بلدٍ هو جزيرةٌ (أي منعزل كجزيرة). ولا حتّى أكبر دولةٍ في العالم يمكنها أن تعيش بطريقةٍ انعزاليّةٍ. ولا يمكن بلدانَنا أن تعيش كذلكَ في دَوّامةِ أو الزوبَعَةِ التاريخيّةِ للعالَمِ المُعَولَم. إنّ البحرَ المتوسِّطَ "بُحَيرَةٌ" كبيرة،

تنتقلُ حولَها التوتُّراتُ والفُرَصُ بِسُرعةٍ كبيرة. إنّ تاريخ جيرانِنا هو تاريخُنا، أو هو كذلك بعض الشيء. وليست الهجرةُ هي وحدَها التي تُميِّزُ السيناريو أو المشهدَ الجديد، بل هنالكَ أيضًا وسائلُ الإعلامِ التي باتت دُونَ حُدُود. وهنالك أيضًا العلاقاتُ الاقتصاديّة. وهنالك، بنوعٍ خاصّ، المصيرُ المشترَك، الذي يذهبُ الى أبعَد من الحدودِ القوميّةِ أو الوطنيّةِ بِكَثِير. إنّ زمَنَنا زمنٌ معقَّدٌ ومترابطٌ بالفعل. وإنَّ نَظَرَنَا مرارًا ليس في مستوى زمَنِنا. وحتّى سياستُنا ليست في مستوى زَمَنِنا. فالرُّؤيَةُ مُنعَدِمَة.

لقد انعدمت لقرونٍ عديدةٍ رؤيةٌ مشترَكةٌ بين شمالِ البحر المتوسِّطِ وجنوبِهِ. وقد ذكرتُ ذلك في بدايةِ كَلِمَتِي. كانت رؤيتُنا المُتَبادَلَةُ بشأن البحر تَنقَطِعُ، وكانت عاجزةً عن الذهابِ الى أبعد من ذلك، كما كانت عاجزةً عن إدراكِ ملامحِ وخصائصِ الإنسانِ الذي كان يعيشُ ويتألَّمُ ويَعمَلُ في الجانبِ الآخر، على الضفّةِ الأُخرى. اليومَ، لا يمكنُ أنْ تكونَ علاقاتُنا تجاريّةً فقط. إنّها بحاجةٍ الى رؤيةٍ، الى رؤيةٍ إنسانيّةِ النَّزعَةِ تُحسِنُ التطلُّع الى بعيد وتُحسِنُ التطلُّعَ الى وطنِها، ولكنْ أيضًا الى عالَم البحرِ المتوسِّطِ كُلِّه. نحنُ بحاجةٍ الى تنميةِ رؤيةٍ ناضِجَةٍ بشأن مصيرِنا المشترَك. والرؤيةُ المشترَكَةُ لا تَعني أنّ الجميعَ متساوُون. إنّ خبيرةً شهيرةً في الإناسَةِ (أي عِلمِ الإنسان)، كانت قد عرفتْ المُعتَقَلَ النازِيَّ بسبب حُبِّها للحُرِّيَّة، وكانت تقول:"الجميعُ مُختلِفون، الجميعُ أقارِب".

في عالمٍ كهذا، هنالك حاجةٌ الى محاربة الجهل والتغلّب على الخوف الذي يجعل الناس يصبحون عدائيّين. وهنالك حاجة أيضًا الى مزيدٍ من الثقافة ومعرفةِ الآخرِ والى مزيدٍ من الإيمانِ والحوار. هذا هو معنى رؤيةٍ كبيرةٍ متبادَلَة ومتقاسَمة من قِبَل الناس. إنّني أتكلَّمُ عن هذا في مكانٍ رفيعٍ كجامعة الأزهر، التي كانت دائمًا، حتّى في أوقات صعبة ، منارة دينٍ وثقافة. بل بالأحرى، هنا في الأزهر، أُعتُقِدَ دائمًا بأنّ ممارسة الإيمان (الدين) ودراسته أمران يُنتِجان ثقافة. لقد حافظ الأزهر، على مرِّ القرون، على الإيمان، وكذلك أيضًا، على الثقافة حيّةً من خلال الأنَسِيَّةِ، humanesimo. إنّ للأديان والثقافات، في عصر التكنولوجيّات، مهمّةً كبيرة: وهي أنّه لا يمكنها أن تَظَلَّ مُقفَلَةً في مكتبات البحّاثة المُنَقِّبين، بل عليها أنْ تَنقُلَ رُؤيتَها الى الناس والى الشبيبة.

حضارة التعايش

يجب علينا أنْ نُعنَى برؤيةٍ متوسِّطيّةٍ مُفَصَّلَةٍ كبيرةٍ وعميقةٍ بشأن إيطاليا ومصر والبحر المتوسِّط. فلا نَكتَفِيَنَّ فقط بنتائج الحاضر والماضي. ولا نَكتَفِيَنَّ فقط بالنتائج الاقتصاديّة. فالمجال المحيط بالبحر "الموجود بين الأراضي" (هذا هو معنى المتوسِّط) هو أشدُّ توزيعٍ (أو تفريعٍ الى طبقات) خارقٍ العادةِ يذكرُهُ التاريخُ لِقضايا وتَنَوُّعاتٍ. وهكذا يمكنه أن يكونَ، مع عدم النسيان أيضًا أنَّ شعوب الضفّتَين قد تعرّضَتْ ـ مرارًا عديدةً ـ لتجربة التصارع وقد غَرِقَت في الجهل. غير أنّ التاريخَ قد تَغَيَّرَ اليومَ، هنا وفي أماكن عديدةٍ منَ العالَم. والتاريخُ الماضي لا يعود. من القرن الثامن عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر، سيطر الصراعُ بين الألمان والفرنسيّين على التاريخ الأوروبيّ. فهذان الشعبان قد تَباغَضا وتَقاتَلا حتّى سقوط ملايين الضحايا منهما. ولكنْ، اليومَ، وبعد انقضاء ستّينَ عامًا فقط، مَنْ تُراهُ يستطيعُ القولَ إنَّ ذلك التاريخَ يعودُ؟ هنالكَ تاريخٌ جديدٌ لا بدّ من كتابتِه.

أوَدُّ أن أؤَكِّدَ أنَّ الجهلَ والعَداوةَ بين الأوروبيّينَ والعرب، بين المُسلمينَ والمسيحيّينَ قد مَضَيَا. فَلَمْ يعُد الإسلام دين الضفّةِ الجنوبيّة للمتوسّطِ وحسب (أي انّه انتشر)، كما لم تَكُنِ المسيحيّةُ أبدًا دينَ الضفّةِ الشماليّة. ففي مصر تعيشُ جماعةٌ مسيحيّةٌ عريقةُ العهد كبيرةُ العَدَد. وفي أوروبا تعيشُ جماعاتٌ مُسلِمة. إنّ بلدان البحر المتوسِّط قد تغيَّرَتْ وستَتَغَيَّر.

لكِنْ يجب بناءُ رؤيةٍ متوسّطيّة متينة ومفصَّلة، قادرة على فهم العلاقات الاقتصاديّة والسياسيّة، وأيضًا العلاقاتِ الثقافيّة والدينيّة. وفي الواقع، إنّني مقتنع أنّ الرؤية المتينة التي تتطوّر بين شعوب البحر المتوسّط هي، بالضبط، حضارة العيش المشترك بين شعوبٍ متنوّعة: حضارةُ مُدنِنا، حضارةُ العلاقات بين بلداننا، حضارة المجال المتوسّطي الفسيح. وبكلمة: هي تحقيق حضارةٍ حقيقيّة، لا تُفرَض على الآخرين فرضًا بل تتكوّن وتتشابك: حضارة العيش المشترك بين عوالِمَ ثقافيّةٍ وسياسيّةٍ ودينيّة.

وفي الواقع، هذه الحضارة هي الردّ على المتطرّفين الذين يُشوِّهون صورة الآخرَ، الأجنبي (الغريب)، المختلف. إنّ حضارتنا المتوسّطيّة هي حضارةٌ تنمو في الديمقراطيّة واحترام حرّيّة الجميع. وإنّ العيش المشترك أمرٌ صعبٌ دائمًا: إنّه فنٌّ يجب تَعَلُّمُهُ والعنايةُ به. العيشُ معًا في البلد الواحد، العيشُ معًا بين شعوبٍ مختلفة، العيشُ معًا في فسحةٍ مثل البحر المتوسّط أمرٌ يرقى بحضارتنا. والعيشُ معًا أمرٌ لا يمكن إيكالُهُ الى إرادة الأفراد الصالحة فقط، بل إنّه يحتاج الى مؤسَّساتٍ ديمقراطيّة، لأنّ الديمقراطيّة هي الإطار الأكيد للعيش المشترك. هذا البحر المتوسّط، بحرُ الديمقراطيّات، هو بحرٌ يمكن فيه استحداثُ فضاءٍ ما بين تواريخَ وأديانٍ مختلفة، يكون ذا أهميّة للعالَم أجمع.

رؤيةٌ متوسطيّة؟ أهي حلمٌ؟ إنّ اليُوطُوبيات العالميّة، le utopie planetarie، من نظريّة الشيوعيّة الى نظريّة السوق التي ربّما كانت ستؤدّي بنا حتمًا الى الرَّفاهِ والديمقراطيّةِ والسلام كان لهما طاقتُهما الموهِمة أو الوهميّة. كان بعدَها المصيرُ المؤسف، الذي اُستُحضِرَ كثيرًا، مصيرُ صراع الحضارات. غير أنّ التاريخ كذّب كلّ هذا. ولكنْ، يجب عدم التوقّف عن الحُلم. لذا، أريد أن أؤكّد لكم على التزامي في بذل نفسي لكي تنمو أمام أعيننا رؤيةٌ متوسّطيّةٌ لحضارة العيش المشترك. هذه الرؤيةُ حُلمٌ، لكنّها في الوقت نفسه بناءٌ فعليٌّ لتبادلاتٍ ولقاءاتٍ وتنويعاتٍ وروابط. إنّ المجتمعات التي لا تحلم تشيخ، وإنّ الناس الذين لا يحلمون يصبحون صغارًا مساكين. أمّا من يحلم فهو أكثر واقعيّةً في غالب الأحيان، وهو أكثر بناءً ممّن يحرم نفسَه من الحلم. وفي الواقع، وأحيانًا،الحلمُ هو مشاهدةُ واقعِ الغد. أنا أعتقد أنّ غدَ عيشٍ مشتركٍ وديمقراطيّةٍ واحترامٍ للآخر هو حقًّا حلمٌ واقعيّ جدًّا قادرٌ على توفير رفاهٍ حقيقيّ لمجتمعاتنا ولمَن سيأتي بعدَنا.

وشكرًا على إصغائكم.